اللغة... فكرة الأمةِ وهويّتها

الأستاذ الدكتور محمد مقدادي
جامعة الباسيفيك الأمريكية

ملخص البحث

تمثل اللغة – أية لغة – وعاءً جامعاً للثقافة، وطريقةً للتعبير، ووسيلةً للحلم والتفكير الذي تتحدّد بناءً عليه رؤية أهل اللغة للعالم ولأنفسهم وللطريقة التي يعبُرون بها إلى مجاهل العالم أخذاً وعطاءً في عملية تبادلية فاعلة ومنفعلة وهي، أي اللغة ، بهذه الصفة المولِّدةِ والمحَصِّنه ، تعتبر معقلا من معاقل الدفاع عن الهوية الوطنية والقومية كونها تعبِّر تعبيراً دقيقاً وأميناً عن ذات الأمة وشخصية الشعوب المنتمية لها ، والتي تنفرد بما يميِّزها عن الشعوب الأخرى التي تتحدّث بلغةٍ غيرها، فتمارس بها طقوسها ، وتشتمل على مفرداتِ علومها ومنجزاتها التاريخية والحضارية ، مما جعل من اللغة إفرازاً خاصاً تمايزت به الشعوب فيما بينها ، وتعاملت معه بقدسيّة عالية ، حتى بات المساسُ به مساساً بمُكّوِّن أساسي من مكوّنات الأمة التي تفخر بامتلاكها له ، واعتبر البعض أن اللغة هي الأساس الصّلد الذي تقوم عليه قصةُ الأمّة وفكرتُها، وباتت اللغة والهوية صنوان يصعب الفصل بينهما إن لم يكن مستحيلاً، وبعضهم شدّد على " فهم الهوية" باعتبارها ظاهرة لغويّة ، وخاصيّةً من خصائص اللغة، ووظيفةً من وظائفها الأساسية . إن **الأمة –أية أمة– ليست مجرّدَ مجموعات من الشعوب والقبائل والأعراق، تعيش على بقعة جغرافيةٍ محدّدة، أو ربما تعيش أحداث تاريخٍ واحدٍ**، لأن الجغرافيا عرضة للسّطو وتغيير الحدود والملامح، مثلما أن التاريخَ موضوعٌ دائمٌ للتزييف والنفاق والمداهنة، لكنها – أي الأمّة– **وحدةٌ بشريَّةٌ في فكرها وسلوكها وإرادتها**، وهذه الخصائص **لا يحققها ولا يعمل على تحصينها وحمايتها شيءٌ غير اللغة التي لا ينحصر دورها في تحقيق التواصل بين الأفراد وحسب، بل هي عامل في بناء الفكر والثقافة وتحديد ملامح الأمة وسمات نهضتها الحضارية**، فهي من هذا الجانب الاعتباريّ، ، **نظام اجتماعي – ثقافي– حضاري– متكامل وغير قابل للتجزئة** ، أو القسمة على شيء غير الأمة وحدها التي تبني غدها وتستشرف مستقبلها متّكئة على ما صَلُحَ من أمر ماضيها، آخذة بأسباب التقدّم والنهوض.

تمثل اللغة – أية لغة – وعاءً جامعاً للثقافة، وطريقةً للتعبير، ووسيلةً للحلم والتفكير الذي تتحدّد بناءً عليه رؤية أهل اللغة للعالم ولأنفسهم وللطريقة التي يعبُرون بها إلى مجاهل العالم أخذاً وعطاءً في عملية تبادلية فاعلة ومنفعلة.

وهي، أي اللغة ، بهذه الصفة المولِّدةِ والمحَصِّنه، تعتبر معقلا من معاقل الدفاع عن الهوية الوطنية والقومية كونها تعبِّر تعبيراً دقيقاً وأميناً عن ذات الأمة وشخصية الشعوب المنتمية لها ، والتي تنفرد بما يميِّزها عن الشعوب الأخرى التي تتحدّث بلغةٍ غيرها، فتمارس بها طقوسها ، وتشتمل على مفرداتِ علومها ومنجزاتها التاريخية والحضارية ، مما جعل من اللغة إفرازاً خاصاً تمايزت به الشعوب فيما بينها ، وتعاملت معه بقدسيّة عالية ، حتى بات المساسُ به مساساً بمُكَوِّن أساسي من مكوّنات الأمة التي تفخر بامتلاكها له ، واعتبر البعض أن اللغة هي الأساس الصّلد الذي تقوم عليه قصةُ الأمّة وفكرتُها، وباتت اللغة والهوية صنوان يصعب الفصل بينهما إن لم يكن مستحيلاً ، وبعضهم شدّد على " فهم الهوية" باعتبارها ظاهرة لغويّة ، وخاصيّةً من خصائص اللغة ، ووظيفةً من وظائفها الأساسية [1]

إن الأمة – أية أمة- ليست مجرّدَ مجموعات من الشعوب والقبائل والأعراق، تعيش على بقعة جغرافيةٍ محدّدة، أو ربما تعيش أحداث تاريخٍ واحدٍ، لأن الجغرافيا عرضة للسّطو وتغيير الحدود والملامح، مثلما أن التاريخَ موضوعٌ دائمٌ للتزييف والنفاق والمداهنة، لكنها – أي الأمّة- وحدةٌ بشريَّةٌ في فكرها وسلوكها وإرادتها، وهذه الخصائص لا يحققها ولا يعمل على تحصينها وحمايتها شيءٌ غير اللغة التي لا ينحصر دورها في تحقيق التواصل بين الأفراد وحسب، بل هي عامل في بناء الفكر والثقافة وتحديد ملامح الأمة وسمات نهضتها الحضارية، فهي من هذا الجانب الاعتباريّ، ، نظام اجتماعي – ثقافي- حضاري- متكامل وغير قابل للتجزئة ، أو القسمة على شيء غير الأمة وحدها التي تبني غدها وتستشرف مستقبلها متّكئة على ما صُلُحَ من أمر ماضيها، آخذة بأسباب التّقدّم والنهوض.

بناءً على ما تقدّم، فهل بالإمكان – مثلاً – الفصل بين الأمة العربية ولغتها؟ وماذا يتبقّى من العروبة أصلاً لو أنها تخلّت عن " عربيَّتها " واتّخذت من اللغة الصينية أو الإسبانية أو التركية، لغة للتداول الرسمي والشعبي في أوساطها ..؟ ثم ألم يكن السّعي بكافة الوسائل ، من قبل قوى الاستعمار التي تربعت على أديم المغرب والمشرق العربيين ، لسلخ هذه الشعوب عن أهم عنصر من عناصر وحدتها ألا وهو اللغة بفرض لغة المستعمرين في الشوارع والمزارع والمصانع والمؤسسات ومناهج التعليم على شعوب المنطقة ، وفتح أبواب الجامعات والمعاهد الغربية لنفر أُريد له أن يعود محمَّلاً ليس فقط بلغة المستعمر المجرّدة وحدها ، بل باللغة الحاملة لأفكاره الاستعماريّة المكرَّسة لخدمة مشروع " الإذابة التدريجية " في بوتقة الحضارة الغربية الاستكبارية، التي ترى في تغيير اللغة إيذاناً ببدء التغيير الكلّي والشّامل للمجتمعات ، تمهيداً لسلخها عن تاريخها الإنساني ومنجزها الحضاري ، ووضع حدٍّ للمقاومة والثورة التي تمارسها تلك الشعوب على قوى الاحتلال الغازية ، والتي لو أفلحت في تغريب الشعوب العربية عن لغتها لجعلت منها تابعاً أزلياً لهذا الغرب الذي تفرّد باستعمار شعوب الأرض وإذلالها، وتمادى في نهب خيرات بلادها وعرق أبنائها والموارد التي تزخر بها .

ولقد توالت الهجمات على اللغة العربية منذ أمدٍ بعيدٍ، ولم تزل، فعلى دروب المستشرقين من أمثال " مهندس الرّيّ **(ويكلوكس)** الذي تولّى تحرير مجلة الأزهر ودعا إلى استخدام العامية المصرية بديلا عن العربية الفصحى التي أعاقت تقدم مصر ومنعت المصريين من ركوب موجة الابتكار، سار نفرٌ من أبناء الأمة على نهج يؤدي الدور نفسَهُ، فهذا " **سلامة موسى** " يتنطّع لاستخدام العامية بقوله " إن اللغة العربية لغةٌ بدويّةٌ وأنها لغة رجعيّةٌ متخلّفة"[2]

أما عضو المجمع العلمي المصري"**عبد العزيز فهمي**" فكان قدم اقتراحاً لاستبدال الحروف اللاتينية بالحروف الهجائية العربية تسهيلا للتواصل بين أمتنا وشعوب العالم المتحضر، وكذلك دعا كلٌّ من ''**رفاعة الطهطاوي والدكتور لويس عوض** " الى استعمال اللهجة العامية وتأليف الكتب بها.

ولم يقتصر أمر التشكيك بقدرة اللغة العربية على مواكبة العصر وعجزها عن استيعاب لغة العلوم والمعارف على مصر، بل جاءت دعوات مماثلة في **لبنان** على ألسنة دعاة من مثل "**أنيس فريحه**" استاذ اللغة العربية في الجامعة الأمريكية في بيروت، و" **سعيد عقل** " الذي قال : **"من أراد لغة القرآن فليذهب إلى أرض القرآن**" وتوالت الحروب على اللغة العربية حتى تُوِّجَت عام 1973 بعقد **مؤتمر(برمانا) في بيروت** بمشاركة واسعة من أساتذة وعلماء ناقشوا مقترحاً فرنسياً لإيجاد لغة جديدة متجدِّدةٍ، تتشكل من المفردات الأكثر تداولاً بين الناطقين بلغة الضّاد، وهي الدعوة ذاتها باستخدام اللهجات الدارجة والمحكية التي تستحكم في مفاصل الإعلام والمسرح والسينما والمنابر والصالونات .

ظلّت اللغة العربية – باعتبارها لغة النص المقدس ولسانَ تراثٍ ممتدٍّ كأطول امتدادٍ زماني بين اللغات المتعارف عليها، ظلّت هذه اللغة الهويّةَ الجامعةَ للأمة في مختلف أمصارها، وقاسَماً مشتركاً بين الأقوام والشعوب التي انتمت إليها، وظلت –كذلك –أداةً من أدوات المواجهة مع الآخر الذي سخَّرَ كلّ ما تيسّر له من أدواتٍ لطمس معالم هذه الهوية والنَّيلِ من لغة أهلها وثقافتهم وكبريائهم القوميّة.

إلا أن ما أصاب الأمة من وهَنٍ انعكس بشكل أكثر وضوحاً على لغتها ، ذلك أن المجد الذي حققته اللغة بمقاومة الاستعمار ودحره قد خبا برحيل المستعمِرين، الذين تركوا مفردات لغاتهم تسعى على ألسنة شعوب الأمة العربية، وأبقوا على مكوِّنات ثقافتهم متمثّلةً في سلوكياتنا اليومية، ولم نتمكن باللغة العربية من تجاوز مفاهيم القبيلة وحدود الجهات والأقاليم، ولم نفلح في ترسيخ اللغة لتكون رمزاً لكينونة الأمة، وإماماً لصيرورتها، حتى غدا " معجمُ الحياة العربية بملبسها ومأكلها ومركبها غريباً بعد أن كان يغتني بالتفاصيل الدقيقة حتى الإدهاش " [3]

وأصبح الكثير من أبنائها يتبنّونَ موقفاً مُستهوياً للآخر، وسيمياؤه اللغات الأجنبيّة(فرنسية) في بعض أطراف الأمة، و (انجليزية) في بعض أطرافها الأحرى، وهو موقفٌ " يلقي بظلالٍ من الشكِّ والتصنيف الدّونيّ للغة العربية في نفوس بعض أبنائها" [4]

مع أن اللغة العربية تتصف بأنها " أقدر اللغات على حمل المعاني بمفرداتها الثريّة المتدرّجة في التعبير قوةً وجزالةً ورهافةً "[5]

ويعود هذا الأمر إلى الجهود الموصولة التي بذلتها الأمة في " تحقيق المعاني والأوصاف والدلالات وسبر أغوار النفس واستخراج المفردات المترادفة للمعنى الواحد " [6]

وهو ما يجعل اللغة العربية بما تمتلكه من مرونةٍ وسعَةٍ، قادرة على تطوير أدائها واشتقاق أدواتها للتعبير عن منجزات التكنولوجيا ومخرجات العلوم المعاصرة، وإطلاق المفردات والمصطلحات الجديدة المتجدِّدة، وإدخالها في قاموس اللغة العربية لتصبح جزءً من المخزون المعرفي لهذه الأمة.

والطريف الذي يثير الأشجان والاستهجان، أن الصمود الأسطوري لهذه اللغة لم يشفع لها عند أبنائها، فقد تعرّضت لتجارب صعبةٍ ومحاولات للنيل منها سواء بالدعوة إلى استخدام اللهجات العامية أو اللغات الأجنبية أو استبدال حروفها بحروف لاتينية، وهي محاولات مسمومةٌ تبتغي النأي باللغة باعتبارها موطناً خصباً للذاكرة، وحاضنة دافئةً للوجدان الجمعي الذي يكتمل به إطار الأمة وتترسخ مفاهيم هويتها وملامح خصوصيّتها.

إن **معركة اللغة العربية مع أعدائها معركة متواصلة لا نهاية لها لأنها معركة الكينونة والهوية والمستقبل والحياة**، ولكن دعونا نلتفت إلى **موقفنا نحن**، فالذين يجرّدون اللغة من محتواها الإنساني ، إنما يريدون الإبقاء عليها رهناً لنزعات علماء اللغة، الذين يعيثون بها فساداً وهم يجعلون جلَّ أبحاثهم متركِّزَةً على أنماط التحليلات البنائية السطحية للغة ، وعلى الأنماط الصّوتية فيها ، مثلما أنهم في غالب الأحيان ، لا يُعلِّمون اللغةَ، وإنما يعلِّمون شيئاً عنها، وهو ما يقلل من شأن اللغة ، ولا يساعد على تحسين مستوى علومها ونظرياتها والأفكار التي تولّدُها، إذ لا بدّ من ردّ الكثير من ظواهر اللّغة إلى بعدها الاجتماعي الذي تعمل العولمة على أساسه ، وتستند إليه، وهي تبتكر وسائلها الفريدة للانقضاض على الشعوب المستهدفة في عمليات التغيير الجذريّ التي تلبّي رغبة قوى العولمة الاستعمارية ، في تحقيق هيمنتها المطلقة على مقدّرات الأمم المستضعفة ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

إن **قوانين التقدم هي قوانين طاردة لقوانين التخلّف والنُّكوص**، وإذا كانت التنمية التي تقود إلى التقدم هي نتاج العلم والمعرفة حينما يصبحان ثقافة مجتمعية سائدة، وإذا كانت المعرفة هي وليدة اللغة المتفهّمةِ لسُنَنِ التقدم والنهوض، فإن التنمية هي المحصلة النهائية لهذا التوالد التلقائي الذي تنجزُه اللغةُ باعتبارها منتجةً للثقافة التي تحدد السلوك والأهداف والوسائل الموصلة إليها.

وبالتالي، فإن حضور العلم وحده لا يكفي لنهوض الأمم، فالعلم حاضرٌ حتى في أكثر الدول تخلُّفاً مثل تلك التي تمتلك السيارات الفارهة، وتختال على العالم بأبراجها التي تناطح السّحاب، والتقنيات التي تُشترى بأبهى الصور وأحدثها. لكنّ منتجات العلم تلك لا تحقق سوى غربتِها عن جسدٍ خاضعٍ لشروط ثقافية واجتماعية لا تتعامل بشكل عقلاني مع منجزات العلم ، ولا تعمل على توطينه وإضفاء خصوصيتها عليه لأن هذه المجتمعات لا تمتلك سلوكاً يتواصل مع العلم ويؤصِّلُه ويحوِّلُه إلى ثقافة مجتمعية يجري توظيفها لتحقيق المزيد من التنمية التي تقود إلى الخروج من دائرة التخلف المزمن لأنها – أي التّنمية – تعزّز ثقافة الإنتاج على حساب ثقافة الاستهلاك وينتظم المجتمع عندئذٍ في عقدٍ فريدٍ من العلاقات الانتاجية المفعمة بالأمل والطموح الذي صنعته لغة الانتاج في مقابل وتيرة استهلاكية مشروطة ومُسيطَرٍ على ميولاتها الحدّية وفقاً للغةٍ ومفرداتٍ مغايرة.

ومثلما تنتج اللغة ثقافة التنمية والإنتاج، وتحيل الفكرة إلى سلوك اجتماعي مُجمَعٍ عليه ، فإنها قادرة على توليد ثقافة الحوار وقبول واحترام الرأي المغاير، والعمل المشترك على سدّ فجوات التخالف لتحقيق مظاهر التآلف المجتمعي، وحينما تعجز اللغة عن تقديم مفردات الوئام في نصوصها، فإن ثقافة الخصام هي التي تسود في المجتمع وينجم عنها مظاهرَ السلوك المتمثل بالعنف المجتمعي المتولّد عن ثقافةٍ (تُخَيِّوِنُ) الإنسانَ، وتحيلُه إلى كائن مُستَفَزٍّ جاهزٍ لإشعال الحرائق حتى في نفسه وذرّيّته، فيتحول المجتمع إلى قطيع هائجٍ يهيم في بيداء جهله وتخلُّفه وتعصّبِهِ الأعمى، ويسير على غير طريق الهدى والرَّشاد.

أما قابلية الاستعباد واستمراء العبودية ، فهي سلوك يعبّر عن حالة من الانكفاء وعدم الثقة بالنفس والشعور بالعجز عن أي ابتكار أو توليد ماديّ أو معنويّ وهي حالة نفسيّةٌ تتبنّاها ، وتحوّلها إلى سلوك مجتمعيٍّ، لغةٌ تعمّقُ مفاهيمها في لا وعي المجتمع وبنيته

الذّهنية ليصبح بمرور الوقت مجتمعاً مطواعاً منكسر الإرادة ، وتصير العزّة والكرامة والمروءة جزءاً من ماضٍ يتغنّى به ، ويلوذ إليه حسنوا السيرة والسّلوك، العاجزون عن مقارعة الحاضر المكتظّ بصنوف شتّى من القهر والاستبداد والتعسُّف ، ولا يتقنون غير المشاركة في تعميم سيمفونية التصفيق والتلفيق والمداهنة.

وفي المقابل تحقق اللغة – حينما يريد لها أصحابُها– مشروع المقاومة للظلم والاستعباد والاستعمار والاستكانة، لأنها تصبح لغةً منتجةً لمفردات التصدّي ، وترسِّخُ نهج الممانعة لقوى البغي والتعسُّف والاستبداد ، ولننظر إلى الوراء قليلاً، حينما كانت تنطلق مفردات المقاومة وأهازيجها في فضاء الأمّة، كيف استحالت المقاومة عنواناً حاضراً وسلوكاً على مستوى القول والفعل، وكان لكلّ مساحةُ حضوره، تغنّى الأطفال بالمقاومة وحفظوا أناشيدها، وعرفوا أسماء شعرائها، وانخرط الشّبابُ في صفوف مُقاتليها، واستُقبلت جثامين شهدائها بزغاريد الأمّهات وابتسامات الآباء المستبشرين بالعِزَّة والنصر، وتعالت هتافات الأشقّاء العاقدين العزمَ على اقتفاءِ خطى الغائبين، وفي المقابل ، حينما خفَتَ صوتُ المقاومة ،ووهنت جمرتُها، واندحرت مفردات لغتها أمام جحافل المهزومين بمحمولاتهم من الفكر والسّلوك الاستسلاميين ، مات الفعل المقاومُ، وسكن ما بقي منه نابضاً في صدور المغلوبين على أمرهم.

إذن...،

حينما تفرغ اللغة من مضامينها الاجتماعية وتصير لغة تابعةً للنصّ السَّائد، لا صانعةً له، تسود في المجتمع آفات النفاق والكذب والتزلّف والمداهنة والعمالة والمكر والخديعة والتسلّط والعنف والفساد السياسي والإداري والمالي والأخلاقي، وهي آفات تهيءُ لحالة انحطاط شامل ، ولأن الانحطاط هو مشروع متكامل ، تماماً مثل مشروع النهضة، فمثلما للنهضة مقدّماتها فإن للانحطاط إرهاصاته ، ومثلما أن للنهضة روّادُها ومنظِّروها وقادة الفكر المفضي إليها، فإن للانحطاط مفكِّروه وسدنتُه ومهندسوه وجهابذة التخطيط لتوسيع رقعة انتشاره وتعميقها وأولئك هم " مارينز الانحطاط " وغُلاة الرّدّة الذين فُتحت لهم آفاقُ الفضاء الكونيّ عبر شبكةٍ واسعةٍ من أدوات التواصل والاتّصال وتعزّزت مكانتهم وقدرتهم على تغييب اللغة عن وظيفتها المتمثلة في أنها نظام اجتماعي ومنظومة أخلاقيّةٌ يؤسِّسان لمشروع النّهضة ويواكبان منجزه، ويبنيان على مخرجات المزيد من الإنجازات المرتقبة، والحفاظ على هويّة الأمّة ، والدّفاع عن خصوصيتها.

هذا يقودنا إلى التّأكيد على أن الذي جرى للهنود الحمر، إبّان الغزو الأوروبي للقارة الأمريكية على يد من أسموا أنفسهم بالمتطهِّرين ، هو خير مثال يستدلُّ به على أهمية اللغة ودورها في صون هوية الأمة والدّفاع عن ملامحها الإنسانية ، فقد عاش الهنود الحمر على جغرافية واحدة متحدة، وعاينوا تاريخا موحّداً إلى حدٍّ بعيد، لكنهم تحوَّلوا – بمرور الوقت – إلى مجموعات " بشرية " واهنةٍ مستَضعفةٍ، لا يحقّ لها أن تستعمل لغاتها البدائية إلا في داخل الأسيجة المسوّرة بها معازلُها التي مازالت تفوح منها رائحة الموت ، والإهانة التاريخية ، بعد أن حُرِّم على هذه المجموعات السَّجينة العزلاء ،مجرد التخاطب بلغاتها " الأم " أو أن يُسمِّيَ أحدُ أفرادها مولوده بغير الأسماء الأمريكية التي يتداولها ذوو الرّقاب الحمراء من حملة مشاعل الحرية والديمقراطية ، وإذا ماسوّلت لأحدٍ نفسُهُ الأمّارةُ بالسّوء أن يفعل غير ما تُمليه عليه القوانين الطاغوتية الصّارمة ، فإنه سيُحرَمُ من تسجيل أبنائه في السّجلاّت المدنيّة الرسمية ، وستُحجب عنه الخدماتُ الشحيحةُ التي ينالها من " مجالس شؤون الهنود الحمر " هذه المجالس التي يديرها بعضٌ من أبناء جلدته المتورِّطين في خدمة الحكومة الفيدرالية الممعنة في إذلال من تبقّى من السكان الأصليين على قيد العيش ، دون فعلٍ أو انفعال ، لأن كلا الأمرين محظور عليهم في تلك الزرائب الخَرِبَة ، تمادياً في مصادرة الوعي وتشويه الذّاكرة الجمعيّة التي جرى تفريغها

من كل ما هو جوهري مُبَجَّل ، وإعادة ملئها بسيل من الخرافات والأباطيل ، وأكاذيب الحضارة والتمدّن ،التي وجدت من بين الهنود الحمر أنفسهم من يتبنّاها ويدافع عنها بما يستطيع، ويُجَنِّدُ كل طاقاته في خدمة مشروعها الاستيطاني الاستبداليّ الرَّهيب.

إن الحرب على اللغة، هي حرب بين فكرتين، فحينما نتعرف إلى أهمية اللغة في توليد الفكرة وتأسيس السُّلوك، نفهم لماذا يشُنُّ الغرب حملته التحريضية من خلال (وسائل الإعلام) والتدميريّة باستخدام (القوة العسكريّة) على دول عربية وإسلاميّة ، ويتسابق في إعداد عدَّته لتغيير السلوك والنهج، إذ لا يكفي الانتصار العسكريُّ لتحقيق هذا الهدف " النّبيل" المتلخّص في التغيير الشامل، الذي لن يتحقّق إلا (بإبادة الفكرة) وهو ما وقع فعلاً لدى تأسيس أول مستوطنة انجليزية في أمريكا الشمالية، إذ قامت على فكرتي (الإبادة) و (التأسيس) ، إبادة الهنود الحمر كفكرة للخلاص من حضور الواقع بكل تجلّياته، والشروع في الاستيطان كفكرة لتأسيس أمريكا ، وتجسيداً للأدبيّات العبريّة التي جعلت أمريكا الجسر الموصل إلى مملكة الله التي ستبني (أورشليم / المدينة التي على الجبل) ، كان الاحتلال الصهيوني لفلسطين المستنسِخ لفعل الإبادة وفكرة التأسيس الصهيوني/ فكرة استئصال شعب واستبداله بشعب آخر من شتات الأرض .

إن ضرب العراق وتدمير متاحفه وجامعاته ومؤسساته ونهبها ، وقتلَ العلماء والمبدعين، أساليب التعذيب والإهانة التي مورست في أبي غريب وغوانتاناموا، احتلال بيروت، مجازر صبرا وشاتيلا وقانا، حرب البوسنة والهرسك، الحرب على المقاومة اللبنانية ، الحرب على غزة ، معاهدات كامب ديفيد، وأوسلو ،ووادي عربة، إشعال الفتن الطائفية والإقليمية والمذهبية ، الرسوم الكاريكاتورية والأفلام المسيئة لرسول الأمة ورموزها، أبحاث العديد من المستشرقين الحاقدين، خرائط الشرق الأوسط الجديد وآسيا الكبرى، كلها حروب ضدّ الفكرة بغية استبدالها، وكتابة صفحات جديدة لتاريخ جديد، يجرّد الإنسان من إنسانيتّه، و الرّوح من فضائلها.

وعلى مستوى الداخل العربي والإسلامي، فإن ما ينقّذُهُ اولوا الشأن، من سياسات التجويع والنهب المَنَظَّمين، لموارد البلاد ,اشكال العنف والاستبداد ، وتكميم الأفواه ومصادرة الحريات وإشاعة الرّعب في أوساط المجتمع وتحويل الجيوش الوطنية المعنيّة أصلاً بأمن الوطن وحمايته إلى مؤسسات أمنيّة وشركات للارتزاق، والخطاب الإعلاميّ الرسميّ الهزيلُ المستسلم، والسياسات التنموية غير المتوازنة، وانعدام العدالة واستشراء أشكال الفساد والرّشوة والمحسوبية ، وتغييب القانون الناظم للحياة، وترهّل النظام التعليمي، وانهيار مؤسسات الدولة، وتوريث سلطة المال والسياسة، والتفتّت المريع على مستوى الأسرة والمجتمع ، وتغييب الشعوب عن دورها في التشريع والرقابة ، والتزاوج غير الشرعي بين سلطتي المال والسياسة ، والاجراءات الاقتصادية المستجيبة لشروط فتح الحدود وتحرير التجارة وتخفيض قيمة العملات الوطنية، ووقف الدعم عن السّلع الأساسية ، والسياسات الضريبية المجحفة بحقِّ الفقراء وفاقدي السّند، ووضع البلاد تحت طائلة المديونية التي تجاوزت أكثر من 60% من الناتج القومي الإجمالي لأغلب هذه الدول، وتحويل التوجُّهات نحو الاقتصاد الاستهلاكي والرّيعي على حساب الاقتصاد الإنتاجي المجتمعي ...هذه كلها مظاهر تقود إلى النتائج ذاتها..." قتل الفكرة....واغتيال النهج " وهي الجزء الأفصح بياناً من المؤامرة على (اللغة) التي تأتي بهما معاً.

لقد انقسمت شعوبُ القارة الإفريقية إلى فسطاطين وفقاً للغة التي يتداولها كلٌّ منهما، واحدٌ تابع لفرنسا " إفريقيا الفرنكفونية " وآخر تابع لإنكلترا " إفريقيا الإنجليزية " وهي شعوب تمتلك ذخائرها اللغوية الخاصة بها، قبل أن تحرمها الحقبة الاستعمارية من

التواصل من خلالها، وهي – أي اللّغة –ليست مفردات مجردة وخاملة، بل هي كائنات ذات محتوى ثقافي وفكري وتراثي جامعٍ لكل المركّبات والعناصر التي أنجزتها الشعوب خلال تاريخها الكفاحي الطّويل، وما رافق الرحلة من عرقٍ مالحٍ، ودمٍ ودموع.

إن الواقع المعيش – في عصر العولمة وما يشتمل عليه من حقوقٍ للقوة وتكريسٍ للاستكبار –يحتّمُ العودة إلى القانون اللغوي الذي أورده " ابن خلدون " والقائل بأن غلبةَ اللغة بغلبة أهلها، وبأن منزلتها بين اللغات تعبّر عن منزلة دولتها بين الأمم "

وهو امر دفع عالم النحو الإسباني " **أنطونيو نيبرِخا** " للإفصاح عن غايات ثلاث يبتغيها بتعظيم اللغة الإسبانية وهي: تعظيم الأمة، واستخدام أفضل لعقول الناس، ومنع اللغة من التحوُّل (7)

وفي رسالته التي وجهها للملكة " إيزابيلا " يقول فيها:

" وبما أن صاحبة الجلالة وضعت تحت سيطرتها شعوباً همجيةً عديدة، وأمماً ذات لغات غريبة، وبالانتصار عليهم، أُرغِموا على تقبُّل القوانين التي يفرضها الفاتح إلى جانب لغتنا " (8)

فباللغة ستتمكن الإمبراطورية الإسبانية من فرض وجودها، وتأدية وظائفها وستتوسّع هذه الامبراطورية ما توسّعت " رفيقتها " اللغة الإسبانية.

لا نريد الحديث مطولاً عن موقف " بن غوريون" رئيس وزراء كيان العدو الصهيوني عندما قيل له

إن الجامعة التي أطلقوا عليها اسمه سوف تجعل من اللغة الانجليزية لغة التدريس في كلية الطبّ وحدها، فقال: أفضّل أن نغلق الجامعة برمّتها على أن نستخدم لغة للتدريس غير اللغة العبرية في أي من كلّياتها، فكان القرار قراراً سياسياً، بأن تترجم كافة المقررات المنهجية والأبحاث الطبية إلى اللغة العبرية التي ظلّت لغة محتضرة حتى جاء من بعث الحياة بها.

ونرى بأن الخشية على اللغة من أعدائها أمر يجب أن ينظر إليه بإمعان واحتراز، لكن الخشية على اللغة من أهلها يشكل خطورة أكبر كثيراً، سواء المستغربين منهم بقصدٍ ومعرفة وعن سابق إصرار، أم أولئك المهزومين من الخاصّة والعامّة، الذين يقلّدون القادم ، ويعتقدون أنهم بهذا يحقّقون ذاتهم المنكسرة/الهزيلة/ المترهّلة/ المدبرة/، وهم بهذا الإتباع الأعمى ينزعون جلودهم ويستبدلونها بجلود غيرها فاقدة أصلاً للاستجابة لما هو أصيلٌ ونابع من داخل الأمّة ومكرّسٌ لهويّتها، ولهذا نرى **الرّسميّ العربيّ** يفاخر بإلقاء خطاباته على المنابر الدولية بغير لغة أهله، وقد نجد له العذر الأقبحَ في استخدام غير لغته، ذلك أنه لا يُتقنُها ولا يعرف إلا القليل منها وعنها، أما **النّخبويّ** فلا يجد نفسه فَذّاً ومتميِّزاً وسامقاً إلاّ بالتّشدُّقِ بغيرها، وترى **الشعبيّ** يبرّر جهله بممارسة المزيد من الانحراف عنها، وما بين الرسميّ والنّخبويّ والشعبيّ ، ثمة فضاء إعلاميّ لو دققنا به لوجدنا العجب العجاب ، فالمقروء منه لم يزل محافظاً على استخدام اللغة الفصيحة برغم ارتكابه الكثير من الحماقات بحقها في جوانب القواعد والإملاء، لكن الإعلام المرئي والمسموع فقد باتت أبواقه تصدح بما هو عاميٌّ....وبما هو غير عربي، وتشير بعض الدراسات أن هكذا إعلام يقدم أكثر من 90% من البرامج والمواد الدّعائية ليس بالعامية فقط، بل بالعاميَّة المشوّهة حتى للذوق العام.

ولنذهب للتجوال في العواصم والمدن العربية المزدحمة باليافطات التي يتسابق أصحابها المعلنون على إطلاق الأسماء الأجنبية بينما المؤسسات الرسمية المعنية لا تمنع أحداً من هذا التهافت طالما أن الرسوم مستوفاة والضرائب تُدفع بانتظام. تحدّث مع سائق السيارة أو مع المشتغلين في تقديم أيٍّ من الخدمات أو مع العاملين في البناء والفندقة، ماذا ترى؟

ترى أنك في مدن تسكنها أقليّة من أعراب عبروا شوارعها مسرعين ولم يتوقفوا طويلاً، ولم يتركوا سوى ما دلَّ من الأثر الذي يشير إلى بقاء بعض من سلالتهم يدرجون على أديم هذه البلاد التي باتت تفقد ملامحها وخصوصيتها.

حينما جاء " نابليون " إلى مصر، لم يكن زائراً، ولم يحمل معه " المطبعة " من أجل النهوض بمصر وشعبها، بل من أجل تعميم الثقافة والفكر الفرنسيين وجعل اللغة وعاء حاضنا لهما، ووسيلة لتكريسهما، كان يريد أن يطبع قرآناً جديداً، وأن يضع على رأسه عمامة، ويمضي بهما الى الهند مبشّراً بدينٍ جديد، ومخطئ كلّ من ظنّ يوما أن " نابليون " حمل مشروعاً نهضويّاً إلى مصر، وإلا لماذا أُجهِضَ مشروع " محمد علي " بنفس الأيدي والأدوات؟ فقط لأنه كان مشروعاً خلاّقاً سيرتقي بمصر إلى معارج التقدّم والحداثة، مستنداً إلى الإرث الثقافي في فضاء الأمّة العربية والإسلامية.

إن اللغة باعتبارها حاضنة للفكر وللعلوم وللثقافة بمفهومها الشامل ، حَرِيّةٌ بالتصدّي لكلّ ما من شأنه أن يمسَّ الأمّةَ بمكروهٍ ، أو يُلحِقَ بها شيئاً من الأذى ، أو يجبرَها على التقهقر والانحسار ، ولا بدّ من الاعتراف بأن إجراءات العولمة وقوانينها الصارمة ، وشروطها الفوقية –التي انصاع لها الكثير من السّاسة التابعين والواهنين، وأغرت بمظاهرها الزّائفة بعضاً من المفكرين قصيري النّظر– لا يمكن التّطلّع إليها باعتبارها إجراءات بريئة تتناول الجوانب الاقتصادية والسياسية ، وتحمل – زوراً وبُهتاناً – مشروعاً إصلاحيّاً فحسب ، بل تتعدّاها لتنقضّ على المكوّنات الجوهرية للأمّة ، فالحدود المفتوحة ، والجغرافيا المهشّمة والسيادات الوطنية المبتورة والمتجَاوَزَة ، والشركات العابرة للقارات وللأفئدة وللجيوب ، والفضاء الكونيّ الذي يزخر بمنتجات إعلامية وثقافية مريبة ، تهطل على مدار الساعة ، مخترقة على الآمنين سكونهم وطمأنينتهم ، إنما تؤدّي دوراً اختراقياً لكافة الدُّشَم القوميةِ المتخندِق على أطرافها العارفون بالتفاصيل الموجعة ، والقابضون على جمر الأمّة وحقيقة حلمها في الحفاظ على عناصر تشكُّلها ، ومقومّاتِ وجودها ، وحيثيات بقائها على قيد الفعل والإضافة ، من لغةٍ وميراثٍ ثقافيّ، يمكّناها من الإسهام في بناء المشتَرك الإنسانيّ الرّفيع ، بما ينفع الناس ويمكث في الأرض .

إن مشكلة العولمة ، وهي تتصدّى لقيادة زمام الأمور لشعوب الكون ، وفي مقدّمتها أمتنا على وجه الخصوص ، تكمن في تبنيها فكرة الخلاص من الآخر الذي يواجه مشروعاتها الرامية لتوحيد العالم وفقاً لثقافتها ورؤاها ، بتعميم أنماط السلوك الغربي "السامي" حيث أوكل الرّبُّ لهذا الغرب المتفوّق عرقيّاً ، مهمة قيادة العالم المتخلف الذي لا يمتلك غير الجهل والمرض ، ولن يتحقق للغرب مبتغاه إلاّ بتعميم النموذج الليبرالي الغربي الذي أكّد انتصاره على سواه من النماذج المعاصرة له، مما دفع ببعض مفكّري الغرب الرأسمالي إلى وضع نظرياتهم حول نهاية التاريخ [9] وصراع الحضارات [10] الذي بات أمراً لا رادَّ له ولا خلاصَ من تبعاته ، إلاّ بشنّ الحروب الاستباقية على الشعوب الحاملة لحضارات وثقافات مرشّحة لممانعة المشروع الاستعماري الجديد .... المتجدّد.

الخلاصة:

أن الوقوف على حقيقة العلاقة التشاركية بين هوية الأمة ولغتها، والظروف العولمية التي تسرّب محمولها الثقافي بمحتواه النوعي من الجريمة والجنس والمخدرات والمعتقدات والحركات الاجتماعية والذي ينذر ليس فقط بتعديل البنى الثقافية الوطنية والقومية بقدر ما أنه سيعمل على هدم بنيانها وإعادة تشكيلها بما يخدم مصالح الأقطاب الراغبة في تأكيد هيمنتها الشاملة على أطراف الكون بتدمير قواعد العقل والعلم والمعرفة ومنظومة القيم الجمالية والأخلاقية الرفيعة والمنجز الحضاري الذي أنجزته الأمم عبر تاريخها المديد.

التوصيات:

- وضع استراتيجية عربية متكاملة تنخرط بها المؤسسات الرسمية والشعبية على صعيد التربية والتعليم والإعلام والنقابات المهنية ومنظمات المجتمع المدني، بما يكفل تعزيز العربية في أوساط المجتمع العربي.
- إيلاء اللغة العربية المزيد من الرعاية والاهتمام لتحظى بالمكانة التي تليق بها باعتبارها لغة حضارة وتراث وفكر ومعرفة.
- العمل على ترسيخ هيبة العربية في أذهان أهلها ومقاومة مشاعر الدّونيّة التي تطغى على مشاعر رهطٍ كبير من أبنائها مِمَّن ساد الاعتقاد عندهم بأن لغتهم العربية ليست لغةِ علم ولا فكر ولا تقنيات.
- توحيد جهود مجامع اللغة العربية في مختلف الأقطار لتعمل وفق منهج مشترك وخطة شاملة وتكاملية من أجل توحيد المصطلح والاضطلاع بمهام ترجمة المعرفة وتوطينها عربياً.
- إصدار قوانين خاصة لحماية اللغة العربية للحفاظ على الهوية القومية في مواجهة سياسات الإقصاء ومحاولات الاجتثاث التي تمارسها قوى عالمية لاقتلاع كل ما يعترض سبيل تعميم نسقها الثقافي ومنظومتها القيمية وترسيخ هيمنتها المطلقة على مقدرات الأمة وإلغاء كينونتها التاريخية والحضارية.

المراجع:

(1) جون جوزيف، اللغة والهوية، سلسلة عالم المعرفة، 342، آب 2007

(2) التل، بلال جسن، معركة الغربية في بيوتنا، مركز البيرق الأردني للدراسات والمعلومات، عمان 2013

(3،4) د. نهاد الموسى، ورقة عمل مقدمة لمؤتمر الثقافة الوطنية، عمان، 2014

(5،6) عدي مدانات، ورقة عمل مقدمة لمؤتمر الثقافة الوطنية، عمان، 2014

(7،8) أنطونيو نيبرخا، كتاب النحو الإسباني، المقدمة ص 9، 11

(9) فرانسيس فوكوياما، صاحب نظرية نهاية التاريخ.

10) صموئيل هنتنغتون، صاحب نظرية صدام الحضارات.